

## رأس المال المعرفي العربي.. لمن

### د . محمد عبد الشفيق عيسى

نعم هي المعرفة رأسمال، وأي رأسمال! وفي البداية كان الاقتصاديون يتكلمون عن رأس المال وكفى . هكذا كان الأمر في القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر وفي جُلّ القرن العشرين. وهل ننسى الكتاب العمدة في الفكر الاقتصادي العالمي، كتاب (رأس المال) لكارل ماركس مثلاً؟ وكانت الكلمة تدل على النقود المستخدمة في الإنتاج فيقال، للتوضيح، رأس المال النقدي. كما كانت الكلمة تدل على المعدات المستخدمة في العملية الإنتاجية، فيقال رأس المال فحسب أو «رأس المال العيني»، ويقال بشأنه «التراكم الرأسمالي» أو «تراكم رأس المال».

وفي أواسط القرن العشرين، أوائل الستينات، بدأ الاهتمام ينصرف عن الآلات والمعدات بالمعنى التقليدي إلى بناء البشر المنتجين لها والعاملين عليها، فأخذ يظهر ثم ينتشر مصطلح «رأس المال البشري»، على اعتبار أن البشر يقوم عليهم - وليس على الآلات فحسب - عبء العملية الإنتاجية، امتداداً للمفهوم القائل، بعد الحرب العالمية الثانية، أن (العلم قوة منتجة بشكل مباشر). وفي السبعينات والثمانينات بدأ يشيع مفهوم (التنمية البشرية)، تأكيداً للمعنى المذكور. وأخذت تصدر تقارير دورية عن (الأمم المتحدة) تحمل هذا العنوان.

وفي جميع تلك الأحوال لم يتم تجاوز السقف المحدد للفكر الرأسمالي الذي يعتبر أن الإنسان مجرد قوة منتجة، حتى وإن تكن أكثر القوى المنتجة فاعلية. أو قُلْ: إنه لم يتم تجاوز سقف المفهوم الاقتصادي البحت الذي يطلق عليه البعض (المفهوم الاقتصادي).

ومنذ التسعينات شرع مفهوم (رأس المال) يتسع ليشمل معاني أخرى ذات دلالات متنوعة، من قبيل «رأس المال الرمزي» و«رأس المال الاجتماعي». وظهر كذلك (رأس المال المعرفي)، مصاحباً لجملة مصطلحات معبرة عن متغيرات مهمة، مثل (اقتصاد المعرفة) و(الاقتصاد الجديد) و(البحث العلمي والتطوير التكنولوجي) و(التعلم) و(الابتكار).

هكذا أخذ يتداول مفهوم رأس المال المعرفي في إطار الفكر الرأسمالي، بل أخذ يوظف في سياق الهجمة الرأسمالية (لليبراليين الجدد)، لتبرير التفاوت الطبقي بين من يملكون ومن لا يملكون. في السابق كانت الملكية ملكية أصول إنتاجية «عينية» وخاصة الأراضي والعقارات وأدوات الإنتاج الصناعي وكان (الذين يملكون) هم أصحاب هذه الأصول، أي ملاك الأرض والعقار والمصانع. أما الآن فقد أصبح الاتجاه ينحو إلى اعتبار أن الذين (الذين يملكون) هم الذين اكتسبوا المال، وملكوا معه ناصية العلم والمعرفة الحديثة وقوة المهارة الابتكارية الخلاقة. وأصبح هؤلاء عماد النشاط المحموم للاقتصاد ذي المنزح الرأسمالي على مستوى العالم، وفي بلادنا العربية. وانظر إلى خبراء الحاسبات والبرامج الحاسوبية وتقنيات الاتصال وإلى الأطباء المتسيدين في (سوق) الطب والعلاج «الرأسمالي» المتخصص، وإلى أصحاب المكاتب العاملة مع الشركات الكبرى ذات المساهمة الأجنبية وفروع البنوك الخارجية في مجالات المحاسبة والمحاماة والاستشارات والمقاولات والهندسة. انظر إلى هؤلاء جميعاً، فسوف تجد تجسيدا قويا لرأس المال المعرفي الجديد، ولملك هذا الرأسمال الجديد، من أصحاب المال القادرين على الإنفاق على المورد الجديد ذي الحول والطول، أولئك الأغنياء، ثم أشباه الأغنياء من الشريحة العليا للطبقة الوسطى. لقد ورث هؤلاء المفهوم الحقيقي لملكية الأصول، وورثوا مفهوم «رأس المال المهاري» للحرف التقليدية التي كان أصحابها يورثون أصولهم ومهاراتهم لأبنائهم فيحققون دخولا تتولد باستمرار وتتجدد تلقائيا عبر الزمن.

أما الفقراء العرب و«أشباه الفقراء» فلا يملكون الموارد القادرة على امتلاك رأس المال المعرفي الجديد، بالتعليم الراقى وتعلم اللغات الأجنبية لرأس المال العالمي والتدريب والتأهيل المتخصص المكلف ماليا تكلفة باهظة. لذا تراهم يركزون على العيش يوما بيوم، ومن يملك بعض الموارد لم يدرك - بعد - المفهوم الجديد لرأس المال المعرفي، وإنما يصرف جهده إلى تكوين مدخرات مالية أو عقارية محدودة للأبناء، سرعان ما تتبخر قيمتها عبر الزمن، بفعل القانون الاقتصادي الرأسمالي (تناقص القيمة الزمنية للنقود) اتساقا مع التضخم المالي والسعري.

الأغنياء و(أنصاف الأغنياء) إذن يتفهمون ويطبّقون مدلول الحكمة الصينية القديمة: (إذا أردت أن تطعم إنسانا لمرة واحدة فأعطه سمكة، وإذا أردت أن تطعمه لآخر العمر فأعطه شبكة لصيد الأسماك). فأولئك إذن ينشئون الشبكات لأبنائهم، يتوارثونها ومعها الثروة والسلطة في آن.

أما الفقراء و(أنصاف الفقراء) فيكتفون بإطعام أبنائهم من الأسماك المتوفرة، إن وجدت، يوماً بيوم. أو لعلهم في الحقيقة لا يجدون إلى ملكية شبكات الصيد سبيلاً.

هذا على مستوى كل بلد عربي على حده. أما على المستوى العربي العام فإن مجموعة الأقطار ذات الثروة المالية، في الخليج، تملك القسط الأوفر من الموارد المؤهلة لتملك رأس المال المعرفي الجديد. وبدأ يبرز نوع جديد من التفاوت العربي على هذا الصعيد.

غير أن هذا حديث آخر.